روح الرواد

الاميرال رتشرد برد الاميركي

يقضي الشتاء القطبي وحيداً في محطة نائية

نقلت انباء البرقية في خلال شهر فبراير الماضي ان بعثة الاميرال برد، الرائد القطبي الاميركي، اكتشفت في الاصقاع المتجمدة الجنوبية ارضاً مساحتها ٢٠٠ الف ميل مربع، اطلقت عليها اسم «أرض ماري برد» ورفعت عليها العلم الاميركي. والواقع ان رجال البعثة اكتشفوا هذه الارض في خلال اقامتهم هنالك في السنتين الاخيرتين، ورأوا بعض معالمها. وبعد ما حققت البعثة البرنامج الذي وضعته لزيارة تلك الاصقاع، جمعت معداتها وعادت الى اميركا فبادرت شندكتا بهذه السطور مرفقاً دو يدن بزيارتها الجديدة

وفي ما يلي وصف لأهم ما قام به رجالها وعلماؤها من المباحث الفنية وقصة الشتاء القطبي المظلم البارد الذي قضاه قائدها الاميرال برد، وحيداً في محطة نائية، رغبة منه في دراسة الظواهر الجوية في تلك البلاد. وهي من أروع القصص في تاريخ الرياد الحديثة والقديمة على السواء

البعثة وأغراضها العلمية

الاميرال رتشرد اقلين برد Byrd أول رجل طار الى القطبين. فقد طار الى القطب الشمالي في سنة ١٩٢٦ بطيارة صحبهُ فيها زميله وصديقهُ فليد بنيت. قام من سبتسبرجن متجهاً الى القطب الشمالي فبلغهُ وحوّم فوقهُ ثم عاد الى سبتسبرجن بعد ١٦ ساعة من الطيران. وقصة هذه الرحلة مدوّنة في كتابنا «الرواد». ثم نظّم بعثة الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ كان من أهم فعالها طيران برد وبعض صحبهِ الى القطب الجنوبي، وتحديهم لاسلكيًّا وهم محلقون فرق القطب، مع محطة لاسلكية خاصة بمدينة نيويورك. بيد أنهُ لم يقتنع بكل هذا. فعمد من نحو ثلاث سنوات الى اعداد بعثة جديدة لريادة الاصقاع المتجمدة الجنوبية، بالطيارات والسيارات والمزالق تجرُّها الكلاب. ووضع لبعثتهِ الجديدة برنامجاً يستغرق تحقيقهُ سنتين وغرضهُ العام، البحث في احوال تلك البلاد من النواحي الجغرافية والجوية والبيولوجية وما اليها. وكانت معدات البعثة مؤلفة من سفينتين احداهما من الصلب والثانية من الخشب، واربع طيارات، وست سيارات نقل، و١٥٠ كلباً، وكان رجالها نحو ١٢٠ رجلاً، منهم لعلمهم او نحو النصف من رجال البحث العلمي

وقد كتب الاميرال مقالاً في جريدة النيويورك تيمس، افتتحهُ بقولهِ: — كثيراً ما يوجّه اليَّ السؤال عن الفائدة التي يمكن ان تجنى من ريادة الاصقاع الجنوبية المتجمدة، وانفاق بدرات

الاموال وتعريض ارواح الناس في سبيلها . والردّ على هذا السؤال ان كشف الاراضي الجديدة اقل هذه الفوائد شأناً . بل هو ليس الاّ وسيلة الى مكتشفات ابعد غوراً واعظم شأناً . فالريادة الحديثة لا تبلغ مستوى الكرامة العالية التي تتسق مع همم اصحابها وجهودهم ، الاّ متى تحررت من قيود خطوط العرض والطول . فبين البحوث التي اعددنا لها المعدّات نجد علوماً مثل الفلك والظواهر الجوية والنبات والحيوان والمعادن والاوقيانوغرافيا (علم المحيطات) والآثار المتحجرة والجولوجية الاقتصادية والجولوجية الطبيعية والمغناطيسية الارضية والعلوم او فروع العلوم الخاصة بالجمد والثلج وعلم مواقع النفط وغيرها . فالكشف عن مناطق مجهولة في تلك البلاد ليس الاّ غرضاً واحداً من اغراض عديدة يتجه اليها الروّاد في هذا العصر

والبعثة الثانية التي نظمها الاميرال برد كشفت كما قلنا « ارض ماري برد » واستطلعت احوالها الجغرافية فعرفت السهل منها والجبل والشاطىء ، ويتوقع رجال البعثة ، ان يرسموا لها خريطة على جانب وافر من الدقة ، عند وصولهم الى اميركا ، مستندين الى الحقائق التي دوّنوها والصور التي صوروها في خلال الطيران فوقها او عند ريادتها بالمزالق تجرّها الكلاب

وقد عني هينز وغرمنغر من علماء البعثة بتدوين الارصاد الجوية ، ولم يكتفوا بالارصاد على سطح الجمد بل اطلقوا البالونات في الجوّ ، تحمل الآلة المدوّنة من تلقاء نفسها ، لمعرفة احوال الجوّ في طبقاته العالية . ومن الخطإ ان يظنّ ان احوال الجوّ حول القطب الجنوبي لا صلة لها بالاحوال الجوّية في سائر الاقطار . فاحوال الارض الجوية لا يمكن ان تقسّم الى اقسام منفصول بعضها عن بعض كأنها حُجَرٌ بينها جدران كثيفة فاصلة ولكن ليس بينها ابواب

وقد حملت البعثة الى تلك الاقطار النائية ، احد الاجهزة التي اعدّها الاستاذ آرثر كمتن لقياس الاشعة الكونية ومعرفة هل هي جسيمات دقيقة او فوتونات اي امواج قصيرة تفاذفت من قبيل اشعة اكس والشعة غمّا ولكنها اقصر منها امواجاً وأقوى نفوذاً للمواد . ونتائج القياسات التي قامت بها البعثة في هذا الصدد اميل الى تأييد الرأي بانها من قبيل الجسيمات . ولم يكتفَ بقياس الاشعة الكونية على سطح الجمد ، بل ارسلت الآلة في طيارة الى علو ١٢٥٠٠ قدم

ووجّه علماء الحياة من رجال البعثة وهم اربعة جلّ عنايتهم الى دراسة الاحياء المختلفة من حيوان ونبات مما يعيش على سطح الارض مثل الطيور وأخصها طير البطريق والقشّم او مما يعيش في اغوار الماء من الاحياء المكرسكوبية . وقد ظلّ العلماء وتّر وبركنز وسترت ينزلون شباكهم في مياه خليج الحيتان لاخراج نماذج من هذه الاحياء حتى تجمّد سطح الماء ، واصبحت تدلية الشباك في الماء متعذرة

ومما يسترعي النظر في مباحث البعثة العلمية ، ابتداع طريقة جديدة ، تعتمد على قياس سرعة امواج الصوت في الاجسام الصلدة لمعرفة ما تحت الغطاء الجليدي في تلك البلاد . فقد كان الرأي السائد بين العلماء ان الغطاء الجليدي في الاصقاع المتجمدة الجنوبية عند ريف رُس Ross Shelf قائم

على الماء وثبت البحث بهذه الطريقة ان الغطاء الجليدي قائم على دعامات من اليابسة بعضها جزائر قائمة في الماء يغطيها الجمد فلا يمكن ان تكشف حقيقتها الا بالاعتماد على هذه الطريقة العلمية. ومن هذه الدعامات جزيرة قمتها تعلو ١٠٠٠ قدم عن سطح البحر ويغشاها غطاء من الجمد كثافته ٤٠٠ قدم. والحقائق التي كشفت بهذه الطريقة تمكن العلماء من تقدير الجمد في القارة المتجمدة الجنوبية تقديراً قريباً من الحقيقة. وبالطريقة نفسها اثبت رجال البعثة ان القارة المتجمدة الجنوبية ليست قطعتين من اليابسة بينهما مضيق متجمد، بل هي قطعة واحدة لا فاصل يفصلها

هذا يسير من النواحي العلمية التي عنيت بها بعثة الاميرال برد الثانية الى الاصقاع المتجمدة الجنوبية. ولكن الغرض الاول من هذا المقال ليس ذكر النتائج العلمية فحسب لانها على خطرها ليست الا نتائج اولية للمباحث المنوعة التي قام بها رجال البعثة، وانما القصد ان نروي قصة تتجلى فيها روح الرواد عامرة بفضائل الاقدام والصبر والتضحية في سبيل العلم

برد وعزلته العجيبة

ما قول القارىء في رجل يبتني لهُ حجرة في ابرد بقعة سكنها انسان على الاطلاق، لا تبعد الا قليلاً عن القطب الجنوبي، ثم اذا اقبل الليل القطبي بظلامه الدامس الذي يستمر اربعة اشهر او تزيد، يودّع الرجل رفاقهُ، ومقرّهم يبعد عنهُ مئات الاميال، ويأوي وحيداً الى حجرته، بعد ان يقطع كلّ صلة لهُ بالحياة. هناك تكر الايام والشهور لا يرنُّ في اذنيه الا عصف الرياح وزئير العواصف الثلجية، ولا يطالعهُ من الاحياء وجه ولا يبهجه من الشمس شعاع. فلو انهُ قضى الاربعة اشهر هذه على وجه القمر المعرض عن الشمس، لما كان اشدّ عزلة مما كان؟

كان روّاد الاصقاع المتجمدة الجنوبية قد اكتفوا بتدوين ارصاد الظواهر الجوية على شواطىء تلك القارة في الغالب. ولكن الاميرال برد أدرك أن الوصول إلى رأي علمي في الموضوع يصح الاعتماد عليهِ، يقتضي انشاء محطة للظواهر الجوية في الداخل على مقربة من القطب، وموالاة رصد تلك الظواهر فيها في خلال الليل القطبي الدامس. فبنيت المحطة واختار ان يكون هو الراصد الوحيد، فعانى من الصعاب والاهوال والآلام في خلال ذلك، ما تتضاءل أمامهُ مشيئة الانسان العاديّ. ولكنهُ قالب الصعاب والآلام، وغلب، بباعث من حسن التدبير وصلابة النفس وقوة الايمان

والظاهر أنهُ كان في خلال الاسابيع الاول من عزلتهِ، متمتعاً بنوع من البهجة لا تبلغها الا نفس الفيلسوف في الوحدة التامة. وكان يرحب بالصعاب، على أنها امتحان لقدرته على مواجهتها. فلما توالت عليهِ الايام والليالي، متشابهة في ظلامها وبردها وانقطاعهِ فيها عن كل سبب من أسباب الحياة التي ألفها، بدأت غيوم الفاجعة تتلبد في أفقهِ. فقد أصيب بتسمم من استنشاقهِ لدخان البترول الذي يحرقهُ في موقده، ومن بين الآلة التي كان يستعملها لتجهيز آلته اللاسلكية بالطاقة التي تحتاج اليها

كان قد فضّل البقاء على الفحم ؛ لانهُ لما شرع في اعداد معداته ، كان الليل القطبي قد اقترب وأصبح متعذراً على رجاله أن يأتوا بالقدر الكافي من الفحم من مقرّهم الى هذه المحلة النائية

كان قد انقضى عليه بضعة أشهر وهو يستنشق هذا الدخان ، وهو لا يحسّ بأذى في جسمه . فلما كان يوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٤ ، أنهى اذاعته اللاسلكية ، ودخل النفق الجليدي ، ليوقف المحرك الخاص بالجهاز اللاسلكي فوقع مغشيًّا عليه . ولما أفاق كان خائر العزم ، فأدرك أن حالتهُ تنذر بالخطر . هل فكّر عندها في نفسه ؟ هل خطر على باله أن يبعث باشارة لاسلكية يطلب بها النجدة ، فيهب فريق من أعوانه الى نجدته ؟ كلاّ . انهُ كان يعلم ان الرحلة من المقرّ الرئيسي الى هذه المحلة النائية ، في ظلام الليل القطبي عمل محفوف بالاخطار . فلماذا يعرّض رجاله للموت في سبيل انقاذه؟ أوى في تلك الليلة الى فراشه ، مريضاً ، ضعيفاً ، وحيداً تواجههُ ثلاثة شهور من الظلام الدامس لا تزال امامهُ . البرد الشديد داخل حجرته وخارجها فاذا اصطلى بالموقد استنشق دخانهُ السام . واذا اطفأ الموقد هرئت اطرافه ومات برداً . ماذا يفعل ؟ أوى الى فراشه واخذ القلم بيد خائرة مرتعشة وكتب تعليماته لرجال البعثة كتابة مفصّلة وختمها بقوله : لا تقلقوا ولا تضطربوا . امضوا في عملكم . لا تنوا في تحقيق برنامجكم العلمي . ابذلوا ما تستطيعون في سبيل مساعدة « الرورث »[1]

وبعد ما أتمّ كتابتها لفّها وربطها وعلّقها بمسمار على الجدار ، حيث يستطيع كل احد ان يراها . وكانت لا تزال هناك ، لما اقبل عليه صحبهُ ، بعد انقشاع الظلام القطبي الدامس

بعد انقضاء يومين على هذا ، اتصل بالمقرّ الرئيسي المعروف باسم « اميركا الصغيرة » اتصالاً لاسلكيًّا ، ولكنهُ لم ينبّه بكلمة واحدة عن حالته . وكذلك قضى اسابيع معلقاً بين الموت والحياة وهو لا يعلم هل يستطيع هذا الجسم الانساني ، ان يتغلّب على بواعث السقم ، ولكنهُ كان يعلم أن الروح الانسانية تستطيع ان تتغلّب على بواعث الضعف . كان عليه ان ينقر على آلته اللاسلكي « S. O. S. » طلباً للنجدة فيفوز بها ، ولكنهُ لم يفعل

بل انهُ فعل اكثر من هذا ! كانت قواه الجسدية على أضعفها . وكان في حاجة الى كل دقيقة من الراحة . بل كان يجب عليه ان يضنّ بأيّ عمل يقتضي انفاق الطاقة ، لعلّ الراحة والضنّ بالنشاط يمكنانه من التغلب على السقم . ولكنهُ كان يعلم أنهُ اذا توقف عن الاتصال « باميركا الصغرى » في المواعيد المقررة ، يظن رجالهُ السوء فيهبون الى نجدته ، معرضين أرواحهم للخطر . فكان في المواعيد المقررة للاتصال اللاسلكي يزحف زحفاً ، الى المحرك يحملهُ الى النفق ليذيب الجمد عنهُ بدفء الموقد . وكان وزن هذا المحرّك ٣٥ رطلاً فقط ، ولكن « برد » كان لا يتم نقلهُ بضعة أمتار الاّ في ساعات ، لشدة ما كان يعانيه من الضعف والالم والبرد . والادهى من ذلك ، أنهُ كان يقطّع كلامهُ عن ارساده العلمية ، بتلميح تثير روح أصحابه

(١) رائد اميركي آخر كان يستكشف ناحية اخرى من القارة المتجمدة الجنوبية

ارصاده العلمية ! نعم ارصاده العلمية ! ذلك ان برد ، مع كل ما عانى، لم يهمل ارصاده العلمية يوماً واحداً ، كلفهُ ذلك من المشقة والالم ما كلف . فكان يخرج خمس مرات في اليوم ، لمراقبة الشفق القطبي وتدوين وصفهِ واتجاههِ وعلوهِ وقوة ضوئهِ . وكان الشفق يطول احياناً ، فيظلُّ برد مدى نصف ساعة او اكثر ، وهو يدوّن ما يطرأ عليهِ من التغير الاخّاذ في شكله ولونهِ . وهذا عدا الارصاد المتيورولوجية المختلفة . ويقول الدكتور بوارتر رئيس علماء البعثة ، انهم لما اقبلوا عليهِ ، وجدوا ارصاده مدوّنة احسن تدوين . وعنده ان ما تنطوي عليه هذه الارصاد من الحقائق لابدَّ ان يكون ذا اثر كبير في ترقيه علم الظواهر الجوية

ظلَّ برد على هذه الحالة شهراً من الزمان يرى الموت امامهُ ولكن ارادتهُ لم تخنه في يوم من الايام . ادرك ان العقل يقضي بتوفير نشاطهِ للاعمال التي لا بدَّ منها كالاتصال اللاسلكي برفاقهِ وتدوين الارصاد الجوية . فتوقف عن ادارة الفرنغراف لما تقتضيه تعبئته من الجهد . وتوقف عن اشعال الموقد البترولي ١٤ ساعة كل يوم ، مرتباً ذلك حتى يكون الاطفاء عند ما يكون آوياً الى كيسهِ ، بحيث يستطيع ان يصيب قليلا من الدفء من دون ان يتعرض كل التعرض للدخان السام. وقد كانت درجة البرد خارج الحجرة ، تبلغ سبعين درجة تحت الصفر ، وبلغت مرة واحدة ٨٠ درجة تحت الصفر . وكانت درجة البرد داخل الحجرة ٣٠ درجة تحت الصفر ، مع اختلاف قليل . وتوقف عن طبخ طعام ، مكتفياً بالطعام المقدد المحفوظ تحت سريره ، توفيراً للذهاب والمجيء لغير داع ضروري . وقد كان من اثر ذلك ان اضطرب هضمهُ وصارت نفسه تعاف الطعام ، مع أنهُ كان في اشد الحاجة الى كل ما يغذيهِ ويقويهِ . وتوقف عن القراءة والكتابة ، جهد طاقتهِ ، وكان يزاولها في بدء عزلتهِ . وكذلك استطاع ، بعزيمة تفلُّ الحديد ، وعقل يدرك الحقائق ويواجهها ويختطُّ الطرق للتغلب عليها ، أن يقتصد في نشاطهِ ، فما انقضى شهر يوليو (١٩٣٤) عليهِ حتى استردَّ قواه رويداً رويداً ، فنجا من الخطر المحدق بهِ . فلما وصل صحبهُ اليه في اغسطس ، كان لا يزال ضعيفاً شاحباً ولكن المعركة بين الطبيعة ورجل فرد كانت قد انتهت بانتصار الرجل ، فقاموا وعلى ثغره بسمة تائلا : «اهلا بالصحب »

ومن أقوالهِ بعيد اتصالهِ برفاقهِ وعودتهِ الى المقرّ الرئيسي : «لا يستطيع رجل عاقل مثقف ان يقضي عدة أشهر في حجرة صغيرة ، لا يكتنفهُ فيها الاَّ الظلام الدامس والبرد الشديد ، من دون أن يكتشف شيئاً جديداً في نفسهِ ، فكأنني كنت شجرة ارسلت جذورها في تربة لم تألفها ، أو كأنني كنت رجلا انتقل من الارض الى سيّار آخر . ومع ذلك فقد أتت عليَّ فترات أحسست فيها بطمأنينة وغبطة أعجز عن وصفهما . ولا أذكر أنني سعدت في حياتي قدر سعادتي في الشهرين الاولين من اقامتي هناك »

اننا ـ والحق يقال ـ لا نعرف في قصص الحياة ولا في مبتدعات الخيال قصة اروع من هذه القصة!